فن المقالة قديما وحديثا

رياض أحمد راتهر *

هناك كالعادة تعريفان أحدهما لغوي والآخر اصطلاحي واللغوي يعتمد على مفهوم لفظة المقال أو المقالة وما قيل بشأنها في معاجم اللغة. وتكاد المعاجم تتفق على أن لفظة المقال مأخوذة من القول معناه القول أو الكلام أو ما يتلفظ به اللسان.

وجاء في لسان العرب (قال يقول قولا وقيلا وقولة ومقالا ومقالة) فالمقالة لا يعدو معناه اللفظي أنها شيئ يقال.[١] يقول الحق تبارك وتعالى (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله)[٢] وكما وردت كلمة المقالة أو المقال في أشعار السلف من ذلك قول حسان بن ثابت:

ما ان مدحت محمدا بمقالتي
لكنى مدحت مقالتي بمجد

وقال الحطيئة يخاطب عمر رضي الله عنه:

تحنّن عليّ هداك المليك
فإن لكل مقام مقالا[٣]

تعريف اصلاحي:

المقال قطعة نثرية محدودة الطول تعالج موضوعا واحدا، وتلم بالجوانب العامة له بطريقة سهلة وسريعة. وموضوع المقال

* باحث الدكتوراه في قسم اللغة العربية، بجامعة كشمير.

يتسع لكل شيء في الوجود من تعبير عن عاطفة أو رغبة أو رحمة أو معرفة أو فكرة،[٤] ولكنه ليس حشدا للمعلومات، وليس كل هدفه أن ينقل المعرفة وإنما يراعى فيه عنصر التشويق ولا يتم ذلك حتى يعطى من شخصية كاتب بمقدار ما يعطى عن الموضوعِ ذاته. [٥]

جذور فن المقال في الأدب العربي:

ففي الأدب العربي يمكن القول أن المقالة قديمة النشأة ولها جذورها في أدبنا العربي القديم وإلى هذا ذهب عدد من النقاد. فقد ظهرت بذور المقالة جلية عند العرب القدماء في عدد من الآثار الأدبية، ففي القرن الثاني الهجري كانت رسائل عبد الحميد الكاتب ولا سيما رسائله إلى ولي العهد،[٦] كما تمثلت المقالة عند ابن المقفع في رسالته إلى الصحابة وظهرت المقالة النقدية والاجتماعية والفكرية عند الجاحظ (٢٥٥) في كتابه البخلاء ورسائله الأخرى، وظهرت المقالة أيضا عند أبي حيان التوحيدي في كتابيه "الامتاع والمؤانسة" و"المقابسات".[٧] وكذلك ظهرت هذه الفصول لدى ابن الجوزي في كتابه "صيد الخاطر" التي سجل فيها خواطر نتيجة تجاربه وعلاقاته مع الأشياء فكانت تلك الفصول خير مثال على المقالة في الأدب العربي القديم يقول ابن الجوزي في مقدمة هذا الكتاب "لما كانت الخواطر تجول في تصفح أشياء تعرض لها، ثم تعرض عنها فتذهب، كان من أولى الأمور حفظ ما يخطر لكي لا ينسى قد قال عليه الصلوة والسلام "تقيّدوا العلم بالكتابة" وكم خطر لي شيئ فأتشاغل عن اثباته فيذهب، فأتأسف عليه ورأيت في نفسي إنني كلما فتحت بصر التفكر، سنح له من عجائب الغيب ما لم يكن

في حساب فانثال عليه من كتب التفهيم ما لا يجوز التفـريط فيـه فجعلت هذا الكتاب قيدا- لصيد الخاطر- والله ولي التوفيـق أنّـه قريب مجيب".[٨] وهذه الفصول تدور حول شئون الحياة والمجتمع والدين وهموم النفس.

فالمقالة في رأي بعض من النقاد وليد من بذور عربية ومن فكر عربي أخذ سمته في التطور بحسب ظروف عصـره وبيئتـه ومجتمعه وضروراته وإلى هذا ذهب عباس محمود العقاد فيرى "إن هذا اللون كما عرفه العرب هو أقـدم رائـدا للمقالـة فـي الآداب العالمية لأنه ظهر قبل ظهور مقالات مونتاني"[٩] ولكن خالف هـذا الرأي الدكتور عز الدين اسماعيل عندما قال "وكلمة المقال ليسـت غريبة على اللغة العربية ولكنها من حيث دلالتها الفنية تعدّ محدثـة في أدبنا العربي والحق أنّ تاريخ المقالة ترتبط بتـاريخ الصـحافة وهو تاريخ لا يرجع بناء إلى الوراء أكثر من قرن ونصف قـرن بكثير"[١٠]

المقالة في طورها الحديث:

تجمع مراجع التاريخ الأدبي على الكاتب الفرنسـي ميثيـل دي مونتين (١٥٣٣-١٥٩٢م) هو رائد المقالة الحديثة فـي الآداب الأوروبية، ولهذا يقسم مؤرخو الأدب تاريخ المقالة على طـورين متبايين، يقف مونتين حدا فاصلا بينهما. والطور الأول هو الـذي ظهرت فيه المحاولات المقالية في صورتها البدائية الفجة، حين كان تجارب مضطربة لا يحكمها ضابط ولا يجدها قانون، وذلك قبل أن تطور إلى صورتها الحديثة حين أخـذت طريقهـا نحـو النضـج

والتكامل واتخذت لها قالبا أضحى مقررا معروفا فغدت فنا من فنون الأدب المعترف بها، كالملحمة والقصيدة والمسرحية والقصة والسيرة وما إلى ذلك.(١١)

والآن أدركنا أن العرب لم يعرفوا المقال بمفهومه الحديث، وإنّما عرفوا قالبا قريبا منه على شكل رسالة، تناولت بعض الموضوعات الأدبية والاجتماعية والسياسية، وخاطبوا بها طبقة من المثقفين في زمانهم. أمّا المقال في وصفه الفني اليوم فيمكن القول أن المقالة في الأدب العربي الحديث قد انتشرت منذ القرن التاسع عشر مع نشاط الصحف وانتشار حركة الاصلاح فكثر كتّاب المقالات وتنوعت اغراضها.(١٢)

ولما كان المقال مرتبطا بالصحافة وعلى صفحاتها تطور وبأقلام كتّابها دبج، كان لزاما علينا أن نقف على المراحل التي مر بها حتى أصبح فنا أدبيا له جماله وسحره وتأثيره.

مراحل تطور المقالة الأدبية الحديثة:

المرحلة الأولى: يمكن أن نسميها مرحلة النشأة وهي تلك المرحلة التي نشأت فيها الصحافة،لا يكاد يختلف النقاد في الحقل الأدبي على فضل رفاعه الطهطاوي الذي يعد واحدا ممن أسهم في أحداث ثورة ثقافية في العالم العربي ومن الكتاب الأوائل الذين كان لهم دور في تأسيس الصحافة في مصر وبعث المقالة في ثوبها الجديد بعد عودته من رحلته إلى فرنسا. ولقد مكث بها بضع سنين، وألف كتابه المشهور "تلخيص الإبريز في تلخيص باريز" وصف فيه حياة الفرنسيين السياسية والاجتماعية والثقافية، وبهذا حمل معه

بذور المقالة التي بدت متأثرة أيما تأثر بالمقالة الغربيـــة الحديثـــة. وتعتبر جريدة "الوقائع المصرية" ممبرا صحفيا ضمّ أقلامـــا أدبيـــة بجانب الطهطاوي، أمثال حسن العطار وإسماعيل الخشاب وعبد الله السعود وميخائيل عبد السيد وغيرهم. الذين حاولواالتخلص من نمط الكتابة القديمة وفتح المجال بمرحلة جديدة "وهكذا تحرر النثر فـــي تلك المرحلة تحررا كبيرا من التكلف والسجع وأصبح في الغالـــب سهلا مرسلا وأصبح كتابه يؤثرون بلاغة العبارة، وإختيار اللفـــظ وسلامة التركيب والتعبير السليم والمعنى الواضح".[١٣]

المرحلة الثانية: وفيها ظهرت المدرسة الصـــحفية الثانيـــة التي تأثرت بدعوة جمال الدين الأفغاني وبنشأة الحـــزب الـــوطني الأول وبروح الثورة والاندفاع وكان أبرز كتاب هذه المرحلة أديب إسحاق (١٨٨٥) وعبد الله فكري (١٨٨٢) وعلي مبارك (١٨٩٣) وعبد الله النديم (١٨٩٦) وجمال الدين الأفغـــاني (١٨٩٧) وعبـــد الرحمن الكواكبي (١٩٠٢) ومحمد عبـــده (١٩٠٦) كتـــب هـــؤلاء الأدباء في "الاهرام" و"مصر" و"التجـــارة" و"الفـــلاح" و"الحقـــوق" وغيرها من الصحف التي برزت خلال هذا الطور.

عالج كتاب هذه المرحلة شئون السياسة، وأحوال المجتمع، وإصلاح التعليم، وفي هذه المرحلة نشأت المقالة بأنواعه الثلاثـــة: السياسي على يد أديب إسحاق والاجتماعي على يد عبـــد الـــرحمن الكواكبي، والديني على يد جمال الـــدين الأفغـــاني ومحمـــد عبـــده وتناولت المقالة المشكلات المتصلة بالشعب،وبدأ يتطل مـــن قيـــود الأسلوب، وكان لهذا التحول وانتقال الكتابـــة مـــن الفرديـــة إلـــى

الموضوعية.[١٤] هكذا تطورت المقالةفي هذه المرحلة نحو التخلص نسبيا من قيود السجع والتكلف، وأخذ يقترب أكثر من عامة النـــاس تأثرا بدعوة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده الإصلاحية.

المرحلة الثالثة: وفيها ظهرت طلائع المدرســـة الصـــحفية الحديثة ومن كتابها علي يوسف، مصطفى كامل، ولي الـــدين يكـــن ومحمد رشيد رضا، خليل مطران، لطفي السيد. وهـــذه المدرســـة نشأت في عهد الاحتلال وتأثّرت بالنزعات الوطنيـــة والاصـــلاحية التي سبقته والنزعات الحزبية التي تلته. أمّا مصطفى كامل فقد بـــدأ يمثل الحزب الوطني وينشر مبادئه على صفحات جريـــدة "اللـــواء" بينما لطفي السيد يمثل حزب الأمة الذي كان يضـــم مثقفـــى ذلـــك العصر وينشر أفكاره السياسية والثقافية على صـــفحات "الجريـــدة" ومن هنا ندرك أهمية الدور الذي لعبه لطفى السيد وجريدته حتـــى أصبح الباحثون يدعونه بأستاذ الجيل. ومن ثمّ بلغ المقال قمته فـــي هذه المرحلة، وأصبح فنا مستقلا يغزو الحياة والمجتمع، وتحرر من وشي الكلفة وبهارج الصنعة، وخاض معركة الحيـــاة مـــن جميـــع وجوهها الاجتماعية والسياسية والقومية والفكرية، وبدا هذا واضحا وجليا في نظرات وعبرات المنفلوطي، مع قـــدرة فـــي التصـــوير وبراعة في التحليل، وصحة في العبارة وسلامة في الاداء.[١٥]

المرحلة الرابعة: تبدأ هذه المرحلة من الحـــرب العالميـــة الثانيـــة وتستمر في العقود التالية من القرن العشرين ومثلها الأدباء الـــذين أسسوا حركة التجديد من أمثال طه حسين، عباس محمـــود العقـــاد،

عبد الرحمن الشكري، إبراهيم عبد القادر مازني، محمد حسين هيكل، ميخائيل نعيمه، جبران خليل جبران وأحمد أمين وغيرهم.

حفل هذا الطور بنفر من الكتّاب اللامعين فيهم الناقد والمؤرخ والمربي والمتفلسف والسياسي والقاص وغير ممن شاركوا في تجديد الأدب. وهؤلاء المجددون كانوا يرون أن يظلوا مع الأسلوب الفصيح الرصين الجزل، حتى يكون لأدبهم موقع حسن في الأسماع والقلوب، فهم يحرصون على الأعراب وعلى الألفاظ الصحيحة التي تقرها المعاجم، وهم في داخل هذا الإطار يجددون تجديدا لا يخرج بهم عن أصول العربية وإنما يغنيها بما يضيفون من نماذج وفكر جديد.(١٦)

ولا نبالغ إذا قلنا إن هذا الطور شهد خلق الوعي الاجتماعي والابداع الأدبي، فتعدد فنون القول وأصبح المقال فيه أداة التعبير في التأليف والترجمة والإذاعة والصحافة وشتى ألوان النثر.

لكل مرحلة من هذه المراحل أسلوب وطريقة للكتابة، وكانت المرحلة الأولى متأثرة بالمدرسة القديمة في السجع والمحسنات اللفظية. وجاءت المرحلة الثانية لتتحرر من قيود السجع والمحسنات، وإن كانت تميل إلى اللغة الرسمية الرصينة، ولكن هذه اللغة لا تصلح لكتابة المقالة الصحفية. وجاءت المرحلة الثالثة لتتخلص من السجع وتبعاته، ومن المحسنات اللفظية وتعقيداتها لتبرز لغة جديدة هي اللغة الوسطية المفهومة لدى مجمل القراء.

أسباب إزدهار المقال وتخلصه من التكلف اللفظي

١. إنتشار الصحافة وازدهارها: وقد اعتمدت الصحافة على فن المقال أكثر من سواه، وتوسعت المقالة الصحفية أخذت أشكالا وألوانا عديدة وقد نشأت المجلات القادرة على استيعاب المقالة الذاتية والموضوعية مع اختلافها ومضامينها.

٢. ارتقاء الوعي وظهور الأحزاب السياسية والتيارات الفكرية التى أحدثتها أحداث بارزة مثل مجئ جمال الدين الأفغاني، والثورة العرابية والاحتلال البريطاني.

٣. التأثر بالمذاهب والاتجاهات والأفكار القادمة من الغرب.

٤. حركة تأسيس المدارس والكليات ونفوز التأثير الأروبي في سواحل الشام.

٥. ظهور المجلات المتخصصة التي أحاطت بمكونات المقالة العربية.(١٧)

وجدير بالذكر أسهم إنتشار المطابع في الوطن العربي في ذيوع المقال بين أوساط الجماهير المثقفة، وبفضل الصحافة استطاعت المقالة أن تتبوأ مكانة لا يستهان بها في منظومه التعبير والإصلاح وأسهمت في بروز حركات التحرر من الاحتلال الاجنبي في منتصف القرن العشرين،ولهذا أصبحت المقالة أكثر قدرة على مخاطبة الواقع والاهتمام بقضاياه عما كانت في السابق.

خصائص المقالة الحديثة

تميزت المقالة الحديثة بمجموعة من الخصائص وهي:

١. أنها فن نثري تتميز بأن حجمها قصير أو متوسط الطول.

٢. أنها تقدم عرضا لفكره رئيسية واحدة. هي التي توحد المقالة وتسيطر على كيانها.
٣. إذا كانت المقالة ذاتية فإنها تسمّى بالخاطرة أو الصورة القلمية وآنذاك يتحرر أسلوب بنائها ولغتها. تصبح ابداعية الطالع.
٤. إن بناء المقالة الموضوعية يتكون بالاضافة إلى عنوانها من أقسام ثلاثة المقدمة وحجم المقالة أو العرض والخاتمة.
٥. إن عنوانات المقالات يجب أن تتسم بالايجاز والتعبير عن الموضوع واثارة أهتمام القارئ بالموضوع.
٦. امتاع القارئ وإذا ما انحرفت عن هذه الخاصية اصبحت لون آخر في ألوان الأدب وليست بفن مقالة.
٧. الإيجاز والبعد عن التفصيلات المملة مع انماء الفكرة وتحديد الهدف.[١٨]

المراجع:

(١) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت ١٩٩٢، مادة (قول)
(٢) سورة فصلت، آية ٢٣
(٣) الدكتور حلمي محمد القاعود: تطور النثر العربي في العصر الحديث، دار النشر الدولي للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٨م، ص: ١١٧
(٤) عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، الجزء الأوّل، ملتزم الطبع والنشر، دار الفكر العربي، ط: ٢ بدون التاريخ، ص: ٣٤١.
(٥) الدكتور عز الدين اسماعيل: الأدب وفنونه دراسة ونقد، الطبعة الرابعة ١٩٦٨، ص: ٢٨٨
(٦) محمد يوسف: فن المقالة، دار بيروت ١٩٥٧،ص: ١٩-٢٠
(٧) حسين جمعة: قرائة في المقالة العربية، مجلة الموقف الأدبي، اتجاد

الكتاب العرب، دمشق، العدد ١٤٣٣، ٢٠٠١م، ص: ٨

(٨) ابن الجوزي: صيد الخاطر، دار الكتب العلمية، بيروت، ص: ١١

(٩) عباس محمود العقاد: يسألوك، المكتبة المصرية للطباعة والنشر بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨١م، ص:٥

(١٠) الدكتور عز الدين اسماعيل: الأدب وفنونه دراسة ونقد، الطبعة الرابعة ١٩٦٨، ص287:

(١١) محمد يوسف نجم: فن المقالة، ص:٢٠

(١٢) راجع محمد حسن عبد الله: فنون الأدب أصول نصوص قراءات، الطبعة الثالثة ١٩٧٨، الناشر دار المتب الثقافية، ص: ٢٦١

(١٣) عبد اللطيف محمد السيد الحديد، فن المقال في ضوء النقد الأدبي، الدار الاسلامية للطباعة والنشر الطبعة الثالثة، مصر ٢٠٠٣م، ص: ١٢١

(١٤) راجع السيد مرسي ابو ذكرى، المقال وتطوره في الأدب المعاصر، دار المعارف، ١٩٨٢، ص ٥٠

(١٥) المرجع نفسه، ص:٥٣

(١٦) شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، ط١٠، القاهرة، ١٩٩٢، ص: ١٩١

(١٧) راجع الدكتور ربيعي عبد الخالق: فن المقالة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٨م، ص:٣٧-٦٨ وانظر أيضا الدكتور أبو الصالح وأبو أصبح والدكتور محمد عبيد الله: فن المقالة، أصول نظرية وتطبقات نماذج، دار المجد لاوي للنشر والتوزيع،عمان الأردن، ط: ١، ٢٠٠٢م، ص: ١٩

(١٨) راجع الدكتور محمد عبيد الله: فن المقالة، أصول نظرية وتطبقات نماذج، ص:٤٩ وانظر أيضا فن المقالة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص:٦٩-٧٣